



من يستنهض كوامن الخير في الأمة الإسلامية؟

..... | أ.د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي (*) |

إن المتتبع لتاريخ الأمة الإسلامية والمتأمل في ما تعرضت له من هزات عنيفة على مدى التاريخ، سواء بسبب عوامل خارجية: من حروب طاحنة، ومؤامرات ماحقة، وكيد بليغ الغاية في التكاية، وعوامل داخلية: من تمزُّق وحروب، واختلاف وجهل وغير ذلك، إن المتتبع لذلك يرى أنها الأمة الوحيدة التي ظلت عصية أمام العواصف؛ فكلما أصابتها كبوة، ونزلت بها عثرة، قامت معافاة، سليمة، تستجمع قواها، وتلملم جراحها، وتستأنف السير في طريقها إلى الله، عز وجل. فلم تخضع لذويان، ولم تدخل في قاموس قانون الحضارات التي تمر عليها سُنَّة (سادت ثم بادت) كما هو شأن كل حضارة تمر بمرحلة الشباب ثم الشيخوخة ثم الانقراض؛ فعلى الرغم مما أصابها من محاولة مسخ شخصيتها، وتعرضها للاحتلال الذي حاول أن يستلب منها كل مقومات حضارتها، وأن يذيبها في الانحلال الخلقي، وأن يصرفها عن مقومات وجودها، وعزتها، إلا أنها دائماً تنهض وتستعيد عافيتها.

(*) وزير العدل اليمني سابقاً، ونائب رئيس جامعة الإيمان – صنعاء.

ذلك أن الدرع الواقى لها من السقوط هو «العقيدة المستمدة» من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ، كما كانت القوة الدافعة لها في مواصلة السير، وتناسي الآلام والجراح، وهذا يكشف أملاً مشرقاً بمستقبل مضيء مليء بالتفاؤل.

إن هذه الأمة ذات قدرة وأهلية، على استعادة حضارتها بمقوماتها المادية والمعنوية، وأن تقوم بمهماتها في إشاعة الرحمة في العالمين، كما هو شأن دينها خاتم الأديان.

إنها وحدها صاحبة القيم المستمدة من شرع الله، تعالى. كما أنها صاحبة الوراثة النبوية. ومعنى ذلك أنها هي المؤهلة دائماً لإمداد العالم بما عندها من مشارق الأنوار التي تضيء الدرب لكل سائر إلى الحق وعلى الحق. وكم رأينا على مدى التاريخ أن شمسها كلما أفلت من جانب أشرقت من جانب آخر.

وإذا كنا ندرك اليوم ندرة العلماء الريانيين المجددين بسبب عوامل كثيرة عصفت بهذه الأمة، إلا أن مقومات القدرة على استعادة القوة في هذا الجانب ما تزال حية. فغند هذه الأمة الكثير الكثير من الإمكانات التي تؤهلها إلى أن تدفع بكثير من شبابها المنطلق إلى غدٍ مشرق، المحترق على أوضاع أمته، والغيور على دينه إلى الهمم العالية وإلى أن يتسلم الراية من جديد؛ ليجدد معالم هذا الدين بعلم وبصيرة نافذة متوقدة، وعمل دؤوب، وفقه غزير ورؤية إلى الواقع صائبة، وقدرة على مواكبة الأحوال، ومعالجة المشكلات المستجدة، وإعادة الطمأنينة والثقة إلى نفوس هذا الدين وعودتهم من جديد إلى الله.

وأولى الناس بالقيام بهذه المهمة العظيمة، العلماء الريانيون الذين أخذوا على عواتقهم النهضة بالأمة في جانب العلم، والمعرفة، مدركين أن حاجة الأمة اليوم إلى من يأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان في أمور دينها ودنياها، أشد من حاجة العطشان إلى الماء البارد في اليوم الحار.

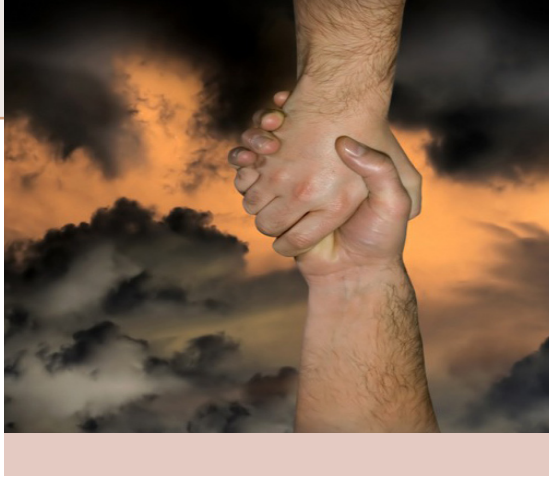
فالأمل إذاً معقود - بعد الله - على المجددين والمصلحين في العالم العربي والإسلامي، أن ينهضوا بهذا العبء الثقيل، ذي الشرف الرفيع، في الدنيا والآخرة، وأن يسدوا هذه الثغرة العظيمة من حياة الأمة.

إن الإنسان اليوم يعاني من أزمات شتى تكاد تعصف به؛ فالخواء الروحي، والتمزق المهول، والأثرة، وتفشي الظلم، والغزائز البهيمية البارزة في مناحي الحياة، والضياح الذي تعيشه كثير من شعوب العالم، بسبب البعد عن دين الله، وشيوع الجهل، وغلبة الأهوال، واستحكام البدع، والإعراض عن الاحتكام إلى شرع الله، سبجانه. كل هذا وغيره يستدعي المبادرة إلى التفكير الجاد في تأهيل العلماء والدعاة، والمفكرين الريانيين الذي يصبحون منارة للناس، ومعاليم يهتدي بهم الحيران، وقدوات سامية يحذو حذوها كل عاشق للخير والفضيلة.

ومحاضن التربية الجادة القائمة اليوم في عدد من أقطار العالم الإسلامي، قادرة على أن تسهم إسهاماً كبيراً في إنجاح هذا الهدف العظيم إذا ما تآزرت كلها في تحقيق هذه الأهداف الجسيمة، ثم من خلال: «المشاركة في تأهيل الرعيل المطلوب»؛ إذ بعد المرحلة الأولى التي تكون حافلة بالتأهيل من خلال التلقي، والحفظ، يدخل الشاب الناشئ مرحلة أخرى لا تقل عن سابقتها، وذلك من خلال حمله على ممارسة الحياة العلمية في جوانب كثيرة، خاصة في المستجدات التي تستعصي على كثير من الناس كيفية التعامل معها من الناحية الشرعية حتى تتفتح الآفاق أمام الشاب، ويستطيع من خلالها الوقوف على قدميه. إننا نحن نرى واقع الأمة الإسلامية وكيف أنها قد أصيبت بقلّة العلماء الريانيين؛ لعدم وجود منابع للعلم تنتج النوعية المثالية من العلماء، إلى جانب ما يلامسه الجميع من عزوف الشباب عن الانكباب على طلب العلم لوجود عوامل كثيرة في العصر الحاضر، الذي فُتن فيه كثير من الناس بكثير من مظاهره، وفُتحت الدنيا عليهم، فأنصرفوا إليها يبحثون عن شيء من متاعها، وزينتها في تنافس محموم، مع غياب القدوة الحسنة التي تضرب الأمثلة الرائعة، فتجدد بذلك منهج وسلوك السلف الصالح.

إن التجديد يعني إحياء ما اندرس من معالم الدين في حياة الناس، وما اندرس كذلك من علوم الشرع، بسبب ندرة حَمَلته الريانيين.

وما تزال النفوس مطمئنة كل الإطمئنان إلى وعد رسول الله ﷺ الذي لا يتخلف وذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يبعث لهذه



الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(١). والسعي إلى إيجاد العلماء الربانيين، هو سعي إلى تحقيق من يسد ثغرة في حياة الأمة؛ إذ التجديد لدين الله - عز وجل - يفتقر إلى من يتمتعون بصنوف

كثيرة من أمور الدين: كالعلم، والجهاد، ونشر العدل، والدعوة إلى الله - عز وجل - وغير ذلك. قال الإمام النووي في حديث الطائفة^(٢): ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة في أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وأمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض^(٣). وقال الحافظ ابن حجر في الفتح بعد أن ذكر كلام الإمام النووي: ونظير ما نبّه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة: فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد؛ إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز؛ فإنه كان القائم على رأس المائة الأولى، باتصافه بجميع صفات الخير، وتقدمه فيها. ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه. فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا» انتهى باختصار^(٤).

وقال المناوي تعليقاً على قول السيوطي: «الحمد لله الذي بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها». قال: «أي مجتهداً واحداً، أو متعدداً، قائماً بالحجة، ناصراً للسنة، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط

الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان، وإشارته ودلالته، واقتضائه: من قلب حاضر، وفؤاد يقظان». وعند قوله: «أمر دينها» قال: أي ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن وخفي من العلوم الدينية الظاهرة

والباطنة، حسبما نطق به الخبر الآتي، وهو: «إن الله يبعث... إلى آخره»^(٥)؛ وذلك لأنه لما جعل المصطفى خاتم الأنبياء والرسل وكانت حوادث الأيام خارجة عن التعداد، ومعرفة أحكام الدين لازمة إلى يوم التناد، ولم تف ظواهر النصوص ببيانها، بل لا بد من طريق وافٍ بشأنها، اقتضت حكمة الملك العلّام ظهور قَرم^(٦) من الأعلام في غرة كل قرن ليقوم بأعباء الحوادث إجراء لهذه الأمة مع علمائهم مجرى بني إسرائيل مع أنبيائهم» انتهى^(٧).

وقال في عون المعبود بعد أن سرد أقول كثير من أهل العلم في معنى التجديد: «فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالماً بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه، وهمة، آناء الليل والنهار، إحياء السنن ونشرها، ونَصْر صاحبها، وإماتة البدع، ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، أو تصنيف الكتب، والتدريس، أو غير ذلك. ومن لا يكون كذلك لا يكون مجدداً البتة، وإن كان عالماً، مشهوراً بين الناس مرجعاً لهم»^(٨). إن وجود علماء ربانيين يتولون القيام ببيان حكم الله - تعالى - بالاستناد إلى كتاب الله - تعالى - وسُنّة رسوله ﷺ، ومراعاة المقاصد الشرعية، والمصالح المرعية، وخضوع الحاكم والمحكوم لهذه الأحكام، كفيل بإشاعة الأمن والطمأنينة، وحماية الأرواح، والدماء، والأموال، والأعراض، والظفر بالحياة الكريمة الآمنة.

ومن خلال ذلك تبرز محاسن الإسلام ومكارمه التي طمّرها فشوى الجهل، وغياب أهل العلم، وعدم سلامة التطبيق في ممارسات الناس، وهو ما أوجد ثغرة لأعداء الإسلام ينفذون من خلالها لتشويه الإسلام والتشكيك في عالميته، وفي صلاحيته

(٥) إشارة إلى الحديث المتقدم.

(٦) في القاموس: القرم (بالفتح) السيد.

(٧) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٩/١.

(٨) عون المعبود شرح سنن أبي داود: ٢٦٣-٢٦٤، رقم الحديث: ٤٢٩١. كتاب

الملاحم.

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم: ٥١٢/٢، ٤٢٩١، والحاكم: ٥٢٢/٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٥١٢.

(٢) إشارة إلى حديث: لا تزال طائفة من امتي ظاهرين لا يضرهم من خذلهم... الحديث.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/٦٧/١٩٢٠.

(٤) فتح الباري: ١٣/٢٩٥.

لكل زمان ومكان، وفي قدرته على مساقرة الأحداث وتطورات الحياة. والجميع يدرك أن الأمم تتداعى على أمة الإسلام اليوم، وأن كل شيء في هذا الدين أصبح

مستهدفاً، حتى وُجِدَت معاول الهدم من داخل بيئة المسلمين.

إن المسلمين اليوم لا بد أن يدخلوا في حقبة جديدة متميزة من تاريخهم؛ بحيث يستعيدون مجدهم وعزتهم، ومكانتهم السابقة بين الأمم، وأن لا يظلوا دائماً في مؤخرة الركب، وهم أصحاب الريادة والقيادة للإنسانية كلها.

لا بد للأمة اليوم أن تتجاوز حدود الجهود الفردية في معالجة مشكلاتها، وأن تتضافر الجهود في النهوض بالأعباء الجسمية التي تحتاج إلى صبر، وجَلَد وتضحيات، وذلك شرف وأي شرف يحظى به الصادقون المخلصون من أبناء هذه الأمة. إن تضافر الجهود في خدمة الإسلام يعبر تعبيراً صادقاً عن وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها، وحُسْن تعاملها وتعاونها على البر والتقوى، وشعورها بالمسؤولية الملقة على عاتقها. إن نداءات المشفقين اليوم من هذه الأمة تتداعى لإعادة النظر في أحوال الأمة والقيام من الكبوة التي وقعت فيها، والانقذات إلى ما أكرمها الله به من مقومات وكفاءات في مجالات شتى، يمكنها أن تفعل الكثير في خدمة الإسلام وإعادة الصف، وجمع الكلمة، وشد أصرة الأخوة الإيمانية، وحل المشكلات.

إنني أعتقد جازماً أن الهموم مشتركة، وأن الحديث عنها قد فاض واستفاض، غير أن الأمر يحتاج إلى همم عالية؛ ذلك أن العجز والكسل، ليس من طبيعة المؤمنين، وكما أن الله - تعالى - لا يمكن أن يهب النصر والتمكين لأمة استسلمت لهذين الدائنين العظيمين (العجز والكسل)، فذلك التفاؤل، وعدم اليأس، هو الأصل في شأن المؤمن الصادق الواثق بوعد الله، المعتمس بالله، المتمسك بحبله، السائر على هداية.

لقد كان الناس يباسون من ثمرة اللقاءات المتنوعة التي تُعقد هنا وهناك بين الحين والآخر لِمَا يرون من عدم الجدية في العمل لِمَا تخرج به من قرارات وتوصيات، ونحن لا نريد أن يكون أهل العلم، والمعرفة، من المساهمين، في صنع اليأس في النفوس، بل يجب أن يكونوا مثلاً يحتذى، وأن يخرجوا من

إطار الشكليات والأنماط المتكررة الموجهة إلى الجد وصدق العزم والبدء بخطوات عملية تنتقل بالأمة من إطار الكلام، والحوار، والنقاش، وتسويد الصفحات،

إلى التطبيق والعمل الجاد المثمر.

إن (العلم) هو القاعدة الصلبة التي تقوم عليها نهضة الأمم والشعوب، لكن لا على أنصاف المتعلمين، ولا على المتعلمين. وإنما على أصحاب الرسوخ في العلم، وأعني بـ (العلم) هنا: معناه الشامل الذي يخدم كل مصالح الدين والدنيا.

وبهذا يمكن الدفع بالأمة إلى حياة أفضل في مستقبل مليء بالخير والأمن، والاستقرار، والعدل الوفير، وكل هذا لا يمكن تحقيقه إلا بإشاعة الأخوة الإيمانية، وأن تهيل التراب على التعصب الممقوت بكل أشكاله وصوره. قال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ولا يفوتني هنا أن أشيد بالجهود الإصلاحية التي يقوم بها كل غيور على دين الله - عز وجل - ممن آثروا الآخرة على الدنيا، وتطهرت نفوسهم من درن حظوظ النفس واستعلت همهم على الاستشراف إلى حطام الدنيا: من جاء، أو سمعه، أو مال... أو غيرها.

كما أقول للذين سقطوا في حمأة السراب الساطع، إثارةً للسلامة وحباً للدعة، وانطواءً على النفس، أقول لأمثال هؤلاء، مذكراً بقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله - تعالى -: ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩]. وقوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

اللهم! اعصمنا من الزلزل، واستعملنا في أحب الأعمال وأرضاها إليك، ولا تفتنا بهذه الحياة الدنيا، ونعوذ بك من أن نشغل بها عن الآخرة آمين.